المتنبي .. صوت التاريخ والادب

باسم عبد الحميد حمودي

كتب الاستاذ زين النقشبندي هذه الدراسة ونشرت في غير مكان منذ فترة، لتفصح عن متابعة تاريخية جادة لحركة الوراقين وأسواق الكتب في بغداد والمطابع وتأسيسها، قديما وحديثا.

ويتبين من الدراسة ان سوق الوراقين في بغدادالعباسية كان أولا خارج أسوار المدينة المدورة وفي منطقة الشالجية، ثم تحول الى غير مكان حتى كان سوق السراي المجاور المحاكم القديمة في نهاية ابنية القشلة، هو سوق الكتب قبيل أزدهار شارع المتنبي، رغم ان سوقا أساسيا لم يكن موجودا في العهد العثماني .

يشير النقشبندي الى ان المكتبات بدأت بالانتقال من سوق السراي الى شارع المتنبي منذ اربعينيات القرن العشرين، وكانت المكتبة العصرية لمحمود حلمي اولى المكتبات التي أنتقلت الى هذا الشارع ثم توالى انتقال المكتبات الاخرى.

أن صوت التاريخ يظل صوتا يسمع رغم كل الحرائق والنكبات التي حلت بالكتاب وبالمكتبة العراقية ودور المخطوطات، وما دونه النقشبندي وسواه سيظل أساسا تاريخيا لا للندب وضياع الحقيقة بل لتأكيدها وتاكيد حيوية الثقافة العراقية وحياتها المتجددة رغم كل النكبات والعوائق .

اسواق الكتبيين في بغداد

زين النقشبندي

سوق الجبقجية

وكان قد عرف قبل ذلك في العهد العثماني بسوق الجبقجية أي اصحاب مهنة (صناعة آلة التدخين) واصحاب الحرف والمهن الجلدية والساعجية وغيرها من المهن. ان سوق السراي الحالي اتخذ اسمه من سراي الحكومة المجاور له والذي له الفضل الكبير على الحركة الثقافية في العراق الحديث، اذ ان هذا السوق هو المصدر الوحيد والاول لعملية اقتناء الكتب القديمة والحديثة اضافة لاهميته التاريخية حيث كان يسمى هذا السوق ايام العباسيين بسوق المدرسة (العصر العباسي المتاخر) وهي المدرسة التتشية نسبة الى الامير خمار تكين التتشي، وهو من مماليك السلاجقة، انشأ مدرسة لدراسة المذهب الحنفي على شاطئ دجلة، (ولم يعرف عن هذا المكان كونه سوقاً للوراقين في تلك الفترة) وكانت هذه المنطقة تسمى في العهد السلجوقي بدرب (زاخا) وهو من موضع محلة سوق الثلاثاء التي كانت تحوي العديد من المعاهد والمدارس والربط منها المدرسة التتشية التي كانت في موضع جامع الوزير في بداية جسر الشهداء حاليا والمدرسة الموفقية ومدرسة الامير سعادة على دجلة في مكان القشلة اليوم وموضع المحاكم، ورباط ارجوان المنسوب الى والدة الخليفة العباسي المقتدي بالله ارجوان الارمنية، الذي كان يقع في ارض الاكمكخانة، وسوق الثلاثاء كان من اهم المحلات المحيطة بدار الخلافة، وفي موضعه اليوم جامع الوزير الملاصق لسوق السراي، وقد بني بين هذا الجامع على عهد والي بغداد الوزير حسن باشا سنة ١٠٠٦م، والطريف في الموضوع ان بناء هذا الجامع كان من اموال التجار المنهوبة حيث اختلطت بعد استردادها من ناهبيها فلم يعرفها اصحابها واقترحوا على الوزير ان يبني الجامع باثمانها وتقول المصادر الخططية ان المدرسة كان متصلاً من جهة الشمال بسوق العميد ومن الجنوب بسوق المدرسة المستنصرية الذي هو احد اجزاء سوق الثلاثاء الشهير كما ذكرنا آنفاً في اواخر العهد العباسي، ويلاصق سوق السراي من جهة النهر بناية المدرسة الاعدادية العسكرية في العهد العثماني التي شغلت فيما بعد من قبل المحاكم المدنية وكانت مشغولة من قبل حاكم تحقيق الرصافة، وقد اشار عبد الرحمن السويدي في كتاب تاريخ حوادث بغداد والبصرة من سنة ١١٨٦-١١٩٢هـ الى (الدفتر خانة) وهي الدائرة التي تحفظ فيها السجلات الرسمية ويذكر الدكتور عبد السلام عنها ان اغلب الولايات المهمة في الدولة العثمانية كانت تحتوي على (دفتر خانة) خاصة بها مرتبطة بالدفتر خانة المركزية في استانبول مباشرة، وكذلك اورد السويدي حادث نقر بيت الدفتر خانة الى جامع الوزير وقد توصلوا الى (المولى خانة) اثناء الفتنة التي حصلت ايام الوزير حسن باشا، وعليه فاننا نعتقد بناءً على ما تقدم بأن وجود السراي اولاً والقشلة ودار (الدفتر خانة) كان سبباً مهماً في تبلور وتأسيس سوق الكتبيين في سوق السراي فيما بعد.

ويذكر نيبور في رحلته في القرن (الثامن عشر) عند مروره ببغداد "انه لم يكن هناك وراقون وسوق كتب مثل القاهرة التي اشتهرت بسوق الوراقين حيث ان الذي يحتاج الى كتاب يستطيع الحصول عليه بسهولة من سوق الوراقين بعد ان يدفع ثمناً معيناً وبعد فترة يتم عليها الاتفاق حسب حجم الكتاب وسعته وحسب رغبة الراغب في اضافة بعض النقوش والزخارف والتذهيب وغيرها من امور التزويق، اما في بغداد فانك لن تستطيع الحصول على ما تحتاج من الكتب الا بعد وفاة احد العلماء اذ يتم بيع كتبه في مزاد يعقد لهذا الغرض "هكذا جرت العادة حيث يذكر نيبور، ونستدل من ذلك ان فترة القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر شهدت تقريباً فترة سبات في سوق الوراقين ببغداد وباقي المدن العراقية.

كيف يحصل الطلبة على كتبهم؟

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن هو كيف كان الطلبة والاساتذة يحصلون على ما يحتاجون من كتب؟ لقد كان يتم الحصول على الكتب بواسطة تقسيم الكتاب الى ملازم وتوزع هذه الملازم على الطلبة فيقوم كل طالب بنسخ ملزمة من الورق (البالغة عشر اوراق) في ليلة واحدة وبهذه الطريقة يتم الحصول كل يوم على كتاب واحد، أي يتم استنساخ كتاب واحد، وهناك طريقتان كان الوراقون في القاهرة يستخدمونهما حيث يتم بواسطتهما الحصول على ما يحتاج اليه الشخص من كتب، الطريقة الاولى ان الوراق لديه مجموعة من النساخ يعملون في محله يقومون باستنساخ اكثر من نسخة من الكتاب او الكتب الرائجة، وفي حاله طلبها من قبل المحتاج يتم بيعها فوراً، والطريقة الثانية هي التي ذكرناها آنفاً هو ان ياتي المحتاج الى الكتاب بنسخة منه او هي موجودة لدى الوراق فيتم نسخها، ومن اشهر النساخين في بغداد كان العشاري الذي يذكر انه كان يلف اصابعه بالقماش ليقوم بنسخ الكتب، فقد كانت مهمة النسخ من الاعمال التي يلجأ اليها المتعلمون الذين لا يجدون عملاً فتضطرهم ظروف المعيشة للقيام بهذا العمل، اما الاساتذة والعلماء فقد كانوا مشغولين بالدرس والمطالعة والتاليف ومن النادر جداً ان يقوما بعملية النسخ الا الذين تضطرهم ظروف المعيشة للقيام بهذه الطريقة، ويذكر د.عماد عبد السلام رؤوف انه لم تكن ثمة معلومات دقيقة عن عدد الاصناف (المهن) في المدن العراقية ابان العصر العثماني ويشير الى مؤلف فقهي مهم كتب في القرن السابع عشر عرض اسماء الحرف الرئيسية القائمة في عهده، والتي تبلغ الاربعين ولم يكن ضمن هذه الاصناف التي نقلها لنا (د. عماد عبد السلام) من هذا الكتاب صنف الكتبيين (اصحاب المكتبات) في حين اشار الى صنف الغلافين (صناع الاغلفة) ولا ندري هل المقصود اغلفة الكتب، أي التجليد، أم اغلفة مواد او اشياء اخرى، اما الرحالة اوليا جلبي صاحب كتاب (سياحتنامة) الذي زار بغداد في القرن السابع عشر الميلادي والحادي عشر الهجري فانه لم يذكر الا اصنافاً قليلة كذلك لم يشر الى صنف الكتبيين، اما الكوماندز فيلكس جونس الذي زار بغداد في القرن التاسع عشر منتصف القرن الثالث عشر الهجري الذي ذكر نحو سبعين صنفاً متميزاً مستقلاً يشمل اغلب ما تحتاجه المدينة في ذلك العهد من خدمات وهو ايضاً لم يذكر الكتبيين ويبدو مما تقدم انه لم يكن للكتبيين صنف ولا وجود مثل باقي الاصناف في ذلك العهد، اما الرحالة راوولف فقد لاحظ ان مدينة بغداد قد غدت في اواخر القرن العاشر الهجري- السادس عشر الميلادي، مجموعة من الازقة الضيقة والبيوت المتهدمة والعديد من الجوامع الخربة التي استحال لونها الى السواد ولبثت بغداد على هذا الوضع طيلة القرن السابع عشر يجللها الركود والخمول والانزواء، حتى ان الرحالة الفرنسي تيفنو وصفها وصفاً مؤلماً عند مروره بها سنة ١٦٦٥م-١٠٧٦هـ اذ يذكر انها اصبحت قليلة السكان وتتخللها مساحات واسعة تخلو من السكان فيما عدا السوق، فان ما بقي من المدينة لا يعدو ان يكون شبيهاً بالصحراء، فقد تراوح عدد سكان بغداد في القرن الثاني والثالث عشر الهجريين (الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين) بين ٥٠ الف- ١٠٠ الف نسمة ويمكن القول ان عهد المماليك كان في احد جوانبه الرئيسية عهد نمو وتطور للمدينة في العراق، ففي بغداد ترتب على تأسيس حسن باشا وابنه احمد باشا نظام المماليك فيها خلال النصف الاول من القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) ومع قيام اول حكومة مركزية عراقية تاخذ على عاتقها توحيد العراق في العصر الحديث ازدياد اهمية بغداد وتعاظم اهميتها الحضارية باعتبارها مركزاً ادارياً رئيسياً ومقراً لأكبر سلطة سياسية في المنطقة وما يستتبع ذلك من وجود مؤسسات حكومية ودوائر رسمية عامة ترتبط بها مصالح عدد كبير من السكان، ولقد تميزت مدن العراق في هذه الفترة بصفة خاصة بازدياد اهمية السرايات الرسمية حتى غدت اهم مؤسسات المدينة على الاطلاق، فسراي بغداد الذي أنشىء في النصف الاول من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) كان يقع جنوب القلعة على شاطئ دجلة الذي كان مقراً عاماً للوالي واتباعه اضافة الى تجمع باقي دور الحكم ودوائر الدولة وكان من المظاهر التي اتسم بها عهد المماليك، اذ ان هذا النشاط المتزايد للسوق الذي كان قريباً من منطقة السراي (الحكم) حيث كانت تتجمع الاسواق التي تجمع ضروب التجارة العديدة لتؤلف بمجموعها حياً او سوقاً تجارياً كبيراً يحمل اسماً معيناً مثل سوق التتن (التوتنجيه) باعة التتن وسوق الكبجية وسوق الجايف وسوق القزازين وسوق الخياطين والبزازين وسوق التخميس وسوق الطول وسوق السروجية وسوق الجوبقجية الذي هو "سوق السراي" والذي تحول فيما بعد لبيع الكتب، وكانت كل هذه الاسواق موزعة بين الميدان والسراي وتمتد جنوباً حيث تكتظ هذه المناطق عادة بخانات التجار والمقاهي والجوامع والمدارس الدينية وباعة الكتب والوراقين.

سوق السراي والطرابيش

وكما ذكرنا سابقاً لم يكن سوق السراي معروفاً ببيع الكتب في اوائل هذا القرن وما قبله، فقد عرف عن العاملين في سوق السراي انهم كانوا يتعاطون بيع الطرابيش والكلاوات والشارات العسكرية والصناعات الجلدية المختلفة وبيع التتن وآلة التدخين (الجوبقجية).

ولم يكن يوجد في بغداد كلها في حينها سوق متخصص ببيع الكتب وانما كان البيع يتم في جوامع معينة ببغداد، مثل جامع الوزير والآصفية الذي كان مقراً للمولوية وقد عرف واشتهر العديد منهم ببراعته ودقته في الخط والزخرفة، وكما يبدو انه كان ذلك جزءاً من هذه الطريقة حيث كان هؤلاء الخطاطون يسكنون في غرف بالطابق الثاني من هذا الجامع، وقد ازيلت هذه الغرف في الاونة الاخيرة عند اجراء التعمير والتجديد لهذا الجامع القديم ببغداد وقد كان هؤلاء الخطاطون يمتهنون اضافة الى حرفة الخط والتزويق والزخرفة حرفة تجليد الكتب باعتبارها مكملة لعملهم حيث انهم عند انتهائهم من استنساخ الكتب كان لابد من ان يقوموا بتجليدها، كذلك لقربهم من دوائر الدولة (السراي والمحاكم).

مزادات الكتب في الجوامع

وكان يجري بيع كتب المتوفين بمزادات في ساحات هذه الجوامع كما ذكرت الصحف الصادرة في حينها ومن الذين عرفوا واشتهروا في حينها بائع كتب يدعى (عبد الرحمن الدلال)، وهو من المعممين حيث ورد اسمه في اعلان بيع كتب بجامع الوزير المذكور نصه في جريدة الزوراء. (ان عبد الرحمن افندي خطيب جامع الوزير وعنده كتب معتبرة نفيسة فالذين يرغبون لها من العلماء الاعلام والمأمورين الكرام فليحضروا نهاري الجمعة والثلاثاء الى المزاد الذي يجري فيها في الجامع المذكور من الساعة الثانية عشرة صباحاً الى الساعة الرابعة ولاجل البيان تحرر الاعلان) نص الاعلان المنشور في جريدة الزوراء (٢٦٠ في ٢٦ ربيع الثاني ١٢٨٩هـ/٢٠ حزيران ١٨٧٢م واعلان اخر (ان عبد الرحمن افندي هو بائع الكتب وهو عبد الرحمن افندي الكتبي) منشور في جريدة الزوراء (٢٦٤) في ١ جمادي الاولى في ١٢٨٩هـ، وهناك اعلان آخر منشور في جريدة الزوراء (٢٧٤) في ١٥ جمادي الاخرة ١٢٨٩هـ، جاء فيه:

(ان بائع الكتب ملا محمود يقع دكانه قرب جامع الوزير).

وكذلك في جامع المدرسة المرجانية حيث بيعت كتب العلامة علاء الدين الآلوسي (ت ١٩٢٢) التي طبعها في الاستانة وهي من جملة مخطوطات الاوقاف في بغداد مثل المستدرك على مقامات الحريري لابن الخشاب وغاية المسؤول في سيرة الرسول (ص) وكتاب التوحيد للمفضل الضبي.

الصحن الكاظمي والحضرة الكيلانية

اضافة الى هذا كان هناك عدد من باعة الكتب في الصحن الكاظمي والحضرة الكيلانية بتلك الفترة يقومون ببيع الكتب المخطوطة والمطبوعة في بولاق وبومباي وبيروت وحلب والاستانة وايران اضافة الى مطابع ولاية الموصل من مطبعة الاباء الدومنيكان والمطبعة الكلدانية ومطبعة الولاية ومطبعة عيسى محفوظ ومطبعة مدينة كركوك ومطبعة مدينة كربلاء والمطابع التي بولاية بغداد (مطبعة كامل التبريزي) ومطبعة الولاية ومطبعة الفيلق ومطبعة دار السلام ومطبعة دنكور ومطبعة الشابندر (التي تحولت فيما بعد الى مقهى)، ومطبعة الآداب والمطبعة الحميدية ومطبعة الرياض لصاحبها سليمان الدخيل ومطبعة ولاية البصرة ومطابع النجف اضافة الى دور العبادة والمدارس اليهودية والنصرانية حيث كانت مكاناً لتوزيع المطبوعات، وكان الاب الكرملي وكيل توزيع عدد من الصحف والمجلات العربية في بغداد منها (المسرة) و(المشرق) والمجلات العربية الاخرى، للمزيد تراجع دار المخطوطات وثيقة رقم (١٠) و(٢٤) الملفة (٣٥٠٠٤) ويعود تاريخها الى مايس ١٩٠٣، ومما يذكر ايضاً ان مجلة الهلال المصرية وصلت العراق منذ ميلادها وكان وكيلها في بغداد محمود درويش معاون محاسبة نظارة الديوان العمومية الذي كتب في عام صدورها عن اوضاع بغداد الاجتماعية والثقافية واستمر ينشر فيها الى الاعداد الصادرة سنة ١٨٨٣، ينظر ع ١١/ تموز صفحة ٥٠٩-٥٤٨ وع ٢١ تموز ١٨٩٤ علماً ان الاستاذ عباس العزاوي ذكر درويش هذا في مخطوطة الادب العربي المعاصر في العراق بعد العهد العثماني (١٩١٧-١٩٤٦) صفحة ٢٤-٢٦ والمخطوط موجود في المجمع العلمي العراقي.

هذا اضافة الى ان ادارة هذه المطابع التي كان قسم منها مكان لبيع وتوزيع الكتب المطبوعة في العراق وخارجه.

العصرية والثقافية

وفي نهاية الاربعينيات بدأت المكتبات تنتقل من سوق السراي الى شارع المتنبي، وكانت المكتبة العصرية لمؤسسها محمود حلمي اولى المكتبات، ثم تبعتها مكتبات اخرى لعل اشهرها مكتبة الثقافة لمؤسسها السيد شمس الدين الحيدري ومكتبة المثنى لمؤسسها قاسم الرجب ومكتبة المعارف لمؤسسها محمد جواد حيدر ثم توالى بعد ذلك ازدياد عدد المكتبات في هذا الشارع، الذي يعد اليوم اشهر سوق للكتبيين في بغداد، نظراً لكثرة عدد المكتبات فيه بعد ان تحول اغلب كتبي سوق السراي الى مهنة بيع القرطاسية بسبب كساد تجارة الكتب، ويعد اليوم كرنفال الاسبوعي في شارع المتنبي ايام الجمع من كل اسبوع احد اهم معالم بغداد الحضارية والثقافية والسياحية التي لا يستغني عنها أي زائر لمدينة بغداد الحبيبة، كذلك يعتبر هذا المهرجان عكاظ العراقيين في الوقت الحاضر، حيث يجتمع فيه الادباء والشعراء وكتاب القصة والفنانين والصحفيين والمثقفين وكل المهتمين بالاداب والفنون بشكل دوري منتظم.

> يذكر المؤرخون ان سوق الوراقين في بغداد كان قريباً من باب البصرة احد ابواب مدينة المنصور المدورة، وتمتد بين منطقتي القنطرة وطاق الحراني في قصليعة (وضاح) في الكرخ (منطقة الشالجية حالياً) "وضاح" هذا هو من موالي الخليفة المنصور. واستمر الحال هكذا حتى العهد البويهي حيث انتقل سوق الوراقين الى الجانب الشرقي من بغداد، ومن المعروف ان الخليفة المنصور كان قد اخرج الاسواق خارج اسوار المدينة المدورة ولعل اقدامه على تشييد بعض البنايات في الجانب الشرقي وبناء قصر الخلد على الشاطئ الغربي كان لإفهام الناس بانه لا خوف عليهم من وجودهم خارج الاسوار، ويقال ان السبب كما يورد الطبري ان السبب الذي دفع المنصور الى نقل الاسواق ما بلغه ان تجاراً غرباء يبيتون داخل اسواق المدينة وان وجودهم خطر على المدينة، اذ لا يؤمن من جانبهم اذ يخشى ان يكون منهم جواسيس للاعداء، بينما يقول ياقوت في معجم البلدان ان المنصور قد تضايق من ارتفاع الدخان من الاسواق واسوداد حيطان بغداد، ومن الاسواق التي نشأت جنوب المدينة المدورة سوق الوراقين، وفي هذا السوق كما يقول اليعقوبي المتوفى سنة ٢٨٤هـ "اكثر من مئة حانوت لبيع وشراء الكتب" ولا يوجد أي علاقة لسوق الكتب الحالي ((سوق السراي)) بسوق الوراقين العباسي الا من حيث تشابه الوظيفة والاسم، الذي عرف في مطلع القرن الماضي كونه سوقاً للكتبيين والوراقين.